10me Année No. 494

Lundi - 21 - 12 - 19..

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٩٤ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٣ ذو الحجة سنة ١٣٦١ — الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٢ » السنة العاشرة

الفهـــرس

١٩٠٣١

٤ – دفاع عن البلاغة

٢ — حد البلاغة

قلنا إن البلاغة توجَّه إلى العقل أو إلى القلب أو إليهما معاً تبعاً لما تقتضيه حالات المخاطبين من مقاومة الجهل والرأى والهوى منفردة أو مجتمعة. فإذا كان غرض البليغ نفى جهالة أو توضيح فكرة أو تقرير رأى، جزاه فى إصابة غرضه الصحةُ والوضوح والمناسبة. فإذا أراد التعليم أو الإقناع وكان قوام الموضوع طائفة من الفِكَر أو الأدلة وجب عليه أن ينسقها ويسلسلها على مقتضى الأصول المقررة فى المنهج العلمى الحديث. أما إذا قصد إلى التأثير والإمتاع لا إلى التعليم والإقناع، كان سبيله أن يتأنق فى اختيار لفظه، ويتفنن فى تحرير أسلوبه، ويستعين على اجتذاب الأذهان واختلاب الآذان بإبداع المَلَكة وإلهام الروح وتشويق المخيِّلة وتزويق الفن

والبلوغ إلى قرارة النفوس أخص صفات البليغ فى كل ما يكتب. فلو أن كاتباً وقع على طائفة من الحقائق، أو حصل على مجموعة من الوثائق، ثم حققها ونسَّقها وأداها فى أجمل لفظ وأجود صياغة؛ ولكنه لم يبلغ بها كنه القلوب كان حرياً أن يُنعت بما شاء من النعوت إلا البلاغة

والسر فى ذلك أن ضروب المعرفة إنما تقوم على الملكات المحصلة، وتعتمد على العقل المجرد، وتثبت بالدليل القاطع.

ولكن الإثبات ليس معناه الإقناع ، فإن الإقناع لا يكون بغير السيطرة على النفس ، والسيطرة على النفس لا تتم بغير البلاغة . هي وحدها التي تعتدّ بالعقل في إدراك الحق ، وبالشعور في إدراك الخير ، وبالذوق في إدراك الجمال . وهي وحدها التي تنفذ إلى القلب بسلطان غير ملحوظ ، وتؤثر في الذهن ببرهان غير ملفوظ ، وتذهب في تصوير الواقع وتقرير الحق مذهب الوحي الإلٰهي الخالد

فالوظيفة الأولى للبلاغة هي الإقناع من طريق التأثير ، والإمتاع من طريق التشويق ، ولذلك كان اتجاهها إلى تحريك النفس أكثر ، وعنايتها بتجويد الأسلوب أشد . وربما جعلوا سر البلاغة في جمال الصياغة

قال أبو هلال : « وليس الشأن في إيراد المعاني ؛ لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف . وليس يُطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً ، ولا يُقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت ... ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة والشاعر في القصيدة ، يبالغون في تجويدها ، ويُغلون في ترتيبها ، ليدلوا على براعتهم ... ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كداً كثيراً »

والحق أن أظهر الدلالات في مفهوم البلاغة هي أناقة الديباجة ووثاقة السَّرد ونصاعة الإيجاز وبراعة الصنعة ؛ فإذا كان مع كل ذلك المعنى البكرُ والشعور الصادق كان الإعجاز . وليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما هو لرونق اللفظ وبراعة التركيب ، أن المعنى المبذول أو المرذول أو التافه قد يتّسم بالجمال ويظفر بالخلود إذا جاد سبكه وحسن معرضه . ولا بأس أن أقدم إليك مثلاً من آلاف الأمثلة بلغ معناه الغاية في السوقية والفحش ، ومع ذلك تحب أن تسمعه وتحفظه وتعيده لأنه بلغ من سر الصناعة غاية تظلع دونها أكثر الأقلام

قال أبو العيناء الأعمى لابن ثوابة : بلغني ما خاطبت به أبا الصقر ؛ وما منعه من استقصاء الجواب إلا أنه لم ير عرضاً فيمضغه ، ولا مجداً فيهدمه

فقال له ابن ثوابة : ما أنت والكلام يا مُكَدّي ؟

فقال أبو العيناء : لا يُنكر على ابن ثمانين سنة قد ذهب بصره ، وجفاه سلطانه ، أن يعول على إخوانه ... ثم رماه بمعنى فاحش مكشوف . فقال له ابن ثوابة : « الساعة آمر أحد غلماني بك » . فقال أبو العيناء : « أيهما ؟ ألذي إذا خلوت ركب ، أم الذي إذا ركبت خلا ؟ »

فانظر في هذه الجملة الأخيرة تره رمى ابن ثوابة في نفسه وفي زوجه ، وهما معنيان سوقيان يترددان كل ساعة على ألسنة السبابين من أوشاب العامة ، وإنك مع ذلك تقف من هذه الجملة موقف المشدوه المعجب ، تحرك بها لسانك ، وتعمل فيها فكرك ، وتعرضها على مقاييس البلاغة وشروطها فتطول على كل قياس وتزيد على كل شرط . تأمل هذا الإيجاز البارع بحذف متعلقات الفعلين وفيها جوهر المعنى وإصابة الغرض ، تجد سر البلاغة كله فيه ؛ لأن هذا الحذف مع وضوح المعنى قد نزّه الكلام عن صراحة الفحش ، وصان المتكلم عن ذكر القبيح ، فلو أنه قال خلوتَ بكذا وخلا بكذا ، وركبتُ كذا وركب كذا ، لانحط الكلام عن مقام البلاغة وصار بهذَر العامة أشبه . وكان يحسِّب البليغ هذا الإيجاز المشرق ، ولكنه ضم إليه من أنواع البديع (العكس) و (أسلوب الحكيم) فعكس الفعلين ، واستعملهما في معنيين مختلفين ، وكل ذلك في غير تكلف ولا تعسف ولا غموض .

فأنت ترى أن الصياغة وحدها هي التي سمت بهذه المعاني الخسيسة إلى أفق البلاغة فتداولتها الألسن وتناقلتها الكتُب . وليس حال المعنى في ذلك حال اللفظ ؛ فإن اللفظ في ذاته كالموسيقى يخلب الأذن ويلذ الشعور وإن لم يترجم ؛ أما المعنى فكالكهرباء ، إذا لم يكن لفظه جيّد التوصيل انقطع تياره فلا يعرب ولا يطرب . اقرأ قول القائل :

لما أطعناكمُ في سخط خالقنا   لا شك سلّ علينا سيف نقمته

ثم وازن معناه الشريف ونسجه السخيف ، بما رويت لك من كلام أبي العيناء ، فلا يسعك إلا أن تقول كما أقول : إن القَذر يوضع في آنية الذهب فيُقبل ويحمل ؛ وإن المسك يوضع في ناجفة الطين فيرفض ويُهمل .

(للكلام بقية)   احمد حسن الزيات

دار الهوى

في عيد القمر

للدكتور زكي مبارك

أخي الأستاذ الزيات

هل تذكر أني وجهت إليك مقالاً من بغداد عن «القلب الغريب في ليلة عيد» منذ نحو أربع سنين؟ وهل تذكر أني تشوقت إلى دار تحب العيد وتحن إليه لأنها تراني مع العيد؟

ذلك مقال قبستُه من نار قلبي، وأخذت مداده من دمي، وأرسلتُه تحيةً إلى دار عظُمت ديونُها على قلبي

وإنما وجهت إليك ذلك المقال لأثير في روحك التشوُّف إلى تعليل ما تعاني الأرواح من متاعب ليس لها في الظاهر سناد من مطالب المجد في هذا الوجود

فهل فكرت في تعليل هذا المعنى؟

وهل حاولتَ الدفاع عن الأعمار التي تضيع في تشريح نوازع الوجدان؟

أنا أطالبك بالرجوع إلى الوجدانيات، بجانب ما أقبلت عليه من الاجتماعيات، فقد كاد الأدب يخلو من الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب. ولا قيمة للأدب إن أغفل الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب

وإليك القصة الآتية:

في حفلة من حفلات إحدى الطوائف المسيحية تسابقَ الحاضرون لتقبيل يد البطريرك، فرأيته ينهض بقوة ليعانق من يسارعون إلى التسليم عليه، مع أنه فيما سمعت قد جاوز التسعين

وعندئذ غلبني الفكر الفلسفي فقلت لجاري في المحفل: إن راحة رجال الدين من هموم الحياة تمنحهم طول الصحة والعافية

فقال جاري بتحمس: كيف ترى ذلك وغبطة البطريرك يحمل هموم الطائفة كلها، ويعنّى نفسه بالدقائق الخفية لجميع البيوت؟

فقلت: المتاعب الفردية أعنف من المتاعب العمومية، فالرجل الذي يحمل هموم بيت يُعدُّ أهله بالآحاد أشق من الرجل الذي يحمل هموم طائفة يُعدّ أبناؤها بالألوف أو الملايين. وهل يحزن وزير المعارف لسوء نتائج الامتحانات العمومية بقدر ما يحزن لو رسب ابنه في الامتحان؟

إحساسنا الصادق يصدُر عن متاعبنا الذاتية أولاً وقبل كل شيء، ثم يتفرّع فيتصل بالمجتمع القريب أو البعيد، وهل بكى النبي محمد لوفاة أي طفل كما بكى لوفاة ابنه إبراهيم؟

وإذن يكون من حقي أن أقول إن الأدب الذي يصوّر الذاتيات هو أصدق الآداب، وهو الآية الباقية على الصدق الأصيل، فمن الجناية على الأدب أن نشغل أقلامنا بهموم خارجية قبل أن نستوفي التعبير عن همومنا الداخلية

للمجتمع حقوق على القلم البليغ، يوم يتأثر الكاتب بتلك الحقوق، ويوم يرى أنه عن تأييدها مسئول أمام الضمير الأدبي لا أمام الناس

وأنت ذلك الكاتب، يا صديقي، فاتجاهاتك الاجتماعية تشهد بأنك تحس آلام المجتمع أصدق إحساس، وسيكون لك في هذا الميدان مكان يحفظه التاريخ

وأنا أرتضي لنفسي ما أرتضي لك، لولا تلك الدار التي أسَرَتْ قلبي عدداً من السنين، ولم أستطع التحرر من أسرها بأي جهاد

إن تاب الله عليّ من الهيام بتلك الدار فسأجاريك في ميدانك، وسيطول بيني وبينك السجال، ولكني أرى الله أكرم من أن يجود بذلك المتاب، لأن نعمته عليّ في هذه الضلالة أعظم من نعمته بالهداية على من يغضّون أبصارهم عن سحر الجمال

وهل كان من العبث أن يتفضل الله فينوّع الخلائق بهذا الوجود؟

إنه نوّع الخلائق لينوّع العواطف

هل تذكر ما تصنع النسائم بالسحاب والرمال؟

رأيت بالأمس عجباً من العَجب: رأيت سُحُباً مطرزة بسماء «مصر الجديدة» على أظرف ما يكون التطرز. وبدا لي أن أجوب الصحراء في ذلك الوقت فرأيت النسائم صنعت بالرمال ذلك الصنيع

أيعجز قلم الكاتب الصوّال عما يقدر عليه النسيم الجوّال؟

النسيم يَعبَث ، وما وُصِف النسيم بغير العبَث ، ثم تكون له القدرة على هذا الافتنان ، فكيف نعجز فى الجد عما استطاعه النسيم فى الهزل ؟

الدار التى أهوى تُضلنى وتغل عقلى بأوثق الأغلال

الدار التى أهوى تصنع بقلبى فوق ما تصنع النسائم العوابث بالسحائب والرمال

الدار التى أهوى حُرِمت أضواء المصابيح أكثر من شهرين ، إلى مَعَاد ، أو إلى غير مَعَاد ، فما أدرى ما تُضمر الأقدار لمصاير ذلك الهوى النبيل ، ولا أعرف متى نلتقى طائعين أو كارهين

كلَّ يومٍ لنا عتابٌ جديدٌ   ينقضى دهرُنا ونحن غِضابُ

إن تلاقينا ـ ومتى التلاق ـ فستكون لنا شؤون وشجون

إن عادت الدار إلى المهد الذى أعرف فسأكون من الحجاج فى العام المقبل ، وسأنفق جميع أموالى على الفقراء والمساكين .

ثم ماذا ؟

ثم أقص على الأستاذ الزيات هذا الحديث :

فى صباح اليوم وأنا فى طريقى إلى الواجب قرأت فى إحدى الجرائد أن المحكمة الشرعية أعلنت أن شهر ذى الحجة يبتدئ بيوم الأربعاء ، فعرفت أننى حُرِمتُ رؤية الهلال ثلاث ليال . ثم خف حزنى حين تذكرت أن القمر غاب عن تلك الدار أكثر من شهرين

ما هذه اللجاجة فى الحب ؟

وما الطمع فى كرم الزمان البخيل ؟

إرجعوا إلى الدار ، دار الهوى ، قبل أن تسمعوا من نُذر الأقدار ما لا تحبون

إرجعوا إلى دار الهوى فى عيد القمر غير مأمورين

إرجعوا ، فللدار التى شهدتْ مولد هوانا حقوق

إرجعوا ، فالفضيحة فى غرامى تكريم وتشريف ، لأنى قيثارة الغرام فى ألحان الخلود

عيد القمر آتٍ بعد ليال ، فهل أراكم فى غرة تلك الليال ؟

القمر يفى ، فهل تفُون ؟

القمر يساير الفصول من شتاء وربيع وصيف وخريف ، فهل تسايرون أحوالى من نزق وطيش وقرار وجمود ؟

أنا أنا ، فهل أنتم أنتم ؟

لقد صبرتُ وصابرتُ لتشهد أحجار تلك الدار أن لها بقايا من الوفاء التى تدّخره كرام القلوب

سينطق الحجر قبل أن تنطقوا ، ولقد نطق لخيّانى ألوف المرات وأنتم فى غيابة العقوق

وماذا تنتظر منى تلك الأحجار ؟

إنها ترجو منى ما أرجو منكم ، ترجو سلاماً من عابر سبيل ، وأنتم هددتم وتوعدتم بأنْ لا لقاء فى غير الفضاء

عودوا إلى الدار ، دار الهوى ، عودوا إليها سالمين غانمين ، فإنى أعدّ لكم قتالاً ألطف وأرفق من السلام

عودوا إلى الدار فى عيد القمر ، وهو آت بعد ليال

عودوا إلىّ فما قلبى بمصطبر   على نواكم ولا فى العمر متسعُ

إن متُّ قبل لقاكم أو فقدتكمُ   قبل الممات فحظى عاثرٌ ظَلِعُ

أنا فى انتظار القمر بعيد القمر ، فهل يعود مع العيد ؟ وهل أشهد كلَف جبينه وهو غضبان ؟

عودوا إلى الدار لا إلىّ ، فقد كادت أحجارها تذوب من نار الاشتياق

يا غاضبين علينا كيف حالكمُ   وكيف دارٌ بها للروح مرتَبَعُ

دارٌ جلَوْنا بها حيناً سرائرنا   كأن أيامها فى صفوها جُمَعُ

لم يُغدق الله فضلاً فاق نعمته   بوصل روحى بكم والشمل مجتمعُ

أما بعد فما رأيُ صديقى الزيات فى هذا الحديث ؟ وهل يرانى فى ضلال وأنا أناجيه بما لا يريد بعد أن هجر صديقه لامرتين ؟

حال العين حال القلب ، للعيون والقلوب أحوال

وقد أشار طبيبى بنظّارة تمنع التشرد من أضواء عينى ، فمتى يشير طبيبى بنظارة تمنع التشرد من أضواء قلبى ؟

لن يكون لقلبى حدود . لن تكون تلك الحدود ولن تكون ، وسيعجز الطب عن جمع الأشعة من أنوار القلوب

متى نلتقى يا دار هواى ؟ متى ؟

عيدُ القمر آتٍ بعد ليال ، فهل نتقاتل بعد ليال ؟

زكى مبارك

العيـــــد

للأستــاذ محمد عرفة

— ١ —

لست مُسرفاً إذا قلت إن كثيراً من الناس يعيّدون ولا يدركون معنى العيـد ، ولا الغَرض المقصود منه . لا يدركون من العيد إلا أنه يوم عطلة ، يفرغ الناس فيه من أعمالهم ، ويتفرغون إلى طعامهم وشرابهم ولعبهم ولهوهم

فعلينا أن نعمل لنفهم معنى العيد لنودعه على الوجه الأكمل .

إن الناظر إلى أعيادنا الإسلامية التي شرعها الإسلام يرى أنها تكون عقب عبادة طويلة شاقة مضنية ، فيها جهاد للنفس والشهوات . فعيد الفطر يأتي في أعقاب الصيام ، والصيام عبادة شاقة ، فيه منع النفس من شهواتها ، وفيه الصبر عن الطعام والشراب ، فإذا انتهى شهر الصوم حل عيد الفطر ، فيفرح فيه المسلمون ويوسعون على أنفسهم وعيالهم وعلى فقرائهم . وعيد الأضحى يقبل بعد أن كادت تتم أعمال الحج ، وفي الحج سفر طويل ، ونفقة كثيرة ، ومنع النفس من بعض الطيبات ، فإذا جاء عيد الأضحى ذبح المسلمون ذبائحهم ووسعوا على أنفسهم وعيالهم وفقرائهم

ولعلكم بعد هذا قد أدركتم معنى العيد ، وفهمتم سر فرح المسلمين فيه . لعلكم أدركتم أنهم يفرحون في عيد الفطر بشيء سام ، هو النصر : النصر على الشهوات ، لأنهم مكثوا شهراً يمنعون أنفسهم في نهاره عن الطعام والشراب وبقية الشهوات الشهية إلى النفس والحبيبة إليها فانتصروا ؛ والنصر على الشيطان ، فقد أراد إغواءهم وإضلالهم ، واستعان على ذلك بالشهوات المنوعة ، والنوازع القوية ، فانتصروا ، لم تتغلب عليهم الشهوة ، ولم يتغلب عليهم الشيطان ، في هذا الكفاح ؛ وما قلناه في عيد الفطر يقال في عيد الأضحى ، فهو عيد النصر : النصر على النفس ، والنصر على الشيطان ؛ وسواء فيه الحاج وغير الحاج ، فالحاج جاهد وصابر واحتمل الآلام واجتاز الأهوال وخرج من المعركة مظفراً منصوراً . وكذلك من لم يحج ، العيد عيدُه ، وهو به جدُّ فرح مستبشر ، وبشرُه بشرُ المسلم بالنعمة تم على أخيه المسلم ، ونَصْرُه وظفره لأن الله نصر إخوانه الحجاج ، فوفقهم جميعاً لأداء الحج وإتمام عبادة من أسمى العبادات ، ومسرته لأن الله أقدر المسلمين على إتمام موسم الحج ، فلم يمنعهم قاهر ولا متسلط عن إقامته ، فهو مزهوٌّ فخور وفرح مستبشر بعزة الإسلام وتمكين الله له في الأرض

وفي العيد — فوق هذا النصر وذلكم التوفيق — تقوية للروابط الوثيقة بين المسلمين ، لأنهم يشتركون جميعاً في استقباله والترحيب والسرور به ؛ والاشتراك في العاطفة داع إلى المحبة ، واشتراك الجماعة في أمر يعمهم ويشملهم مشعر لهم بأنهم وحدة ، عواطفهم واحدة ، وآمالهم واحدة ، وآلامهم واحدة . ولست تجد أدعى إلى المحبة من الاشتراك ، ولا أدعى إلى التنافر من الاختلاف . ثم هم يشتركون قبل ذلك كله في أيام أعيادهم في شئون الحياة وأمور القوت اشتراكاً يظهرهم في أروع مظهر من مظاهر التضامن الاجتماعي الوثيق ، ففي عيد الفطر يخرج المسلم صدقة الفطر قبل صلاة العيد ، وفي عيد الأضحى يذبح أضحيته ضحى يوم العيد ، ويأخذ الفقراء حقوقهم من الصدقة والأضحية ، فيفرغون إلى العيد واستقباله والفرح به والشعور بجماله ، لا يشغلهم عن ذلك طلب القوت ومشكلات المعيشة ؛ ويعم البشر والسعادة الناس جميعاً ، فالأغنياء يفيضون من سعادتهم وبشرهم على إخوانهم من الفقراء

وفي العيد معان كثيرة أروعها أنه عيد النصر وعيد الظفر على النفس والشيطان ؛ والمسلمون يفرحون بالعيد ، لأن الله امتحن عزائمهم فوجدها قوية ، وصبرهم فألفاه ثابتاً ، وإيمانهم فألفاه راسخاً ، وخرجوا من الامتحان مؤمنين ، أقوياء ، راسخين ، بل خرجوا منه أشد وأعظم شعوراً بمعاني القوة والإيمان .

وهذا المعنى في العيد يجعل الفرح فيه عبادة ، لأن الفرح

نشأة النطق بالكلام

ومعرفته بأصل اللغة وتطورها ولهجاتها

للأستاذ إبراهيم إبراهيم يوسف

مقدمة

أتى على موطن العربية حين من الدهر، خفى علينا ميقاته، تضافرت إبانه عصبة من العوامل الاجتماعية القاهرة، فقست على أبناء العربية قسوة كان من بعض شأنها أن أخرجت فريقاً منهم من ديارهم، يضربون فى الأرض، يقتبلون مواطن جديدة ويسيرون فى كل صوب زرافات ووحداناً مهاجرين ساعين فى طلب الرزق. والرأى عندى أن تباعد هؤلاء وتنائيهم عن ديارهم، وتفرقهم وتشتتهم فى أصقاع مختلفة، قد حفز الأكثرين نظراً فى بواطن أمورهم إلى البحث فى مآل اللغة التى يتفاهمون بها، فتبين لهم أن الدهر سوف ينال منها منالاً إذا ما تركوا أمرها للقدر، وأن لا عاصم لهـا من قسوته إذا ما تقاعسوا عن تحصين جزئياتها وكلياتها، وأن لامناص من أن تستتر معالمها، وتتنكر معارفها، وتتبلبل ألسن الناطقين بها يوم يخذلونها.

وأكبر ظنى أن كانت العربية لذلك العهد قد تبلورت وصارت أكثر ما تكون قرابة للغة الأدب التى ورثتنا إياها التاريخ. فعزت على القوم أن تصاب لغتهم بذلك الذى توقعه أهل الرأى عندهم. ومن ثمّ قام أجلتهم يحتاطون للأمر؛ وذهب نفر من علمائهم إلى وجوب وضع دساتير للغة تحميها شر عدوان الزمن، وتحفظها على طول الأمد، وما إن استقر الرأى على هذا، حتى بدأوا العمل به. فكانت هذه فيما أرى، البداية المباركة فى وضع علوم اللغة للسان العرب

وإذاً، فقد نشأت هـذه العلوم فى كنف من الغموض، يحجبها عنا عصر خفى علينا زمانه، واختفى معه كل أثر لمحاولات الأئمة الأول، تلك المحاولات التى انتهت بهذه الدساتير المسوقة إلينا من نحو وصرف وإعراب وغيره

وكان من الطبيعى أن يجر البحث فى وضع دساتير اللغة إلى محاولة التفلسف فيها. وهكذا كان شأن علماء العربية، إذ نجد أن بعض الباحثين من علماء العصر الأول الإسلامى لهم فيها مسائل، ومن بينها مسألة النطق بالكلام. وهذه المسألة إذاً، ليست وليدة الأبحاث العلمية فى علوم اللغة لعصر من العصور الحديثة، كما يزعم الراعمون من رجال العلم فى الغرب، بل هى — على حد ما وصل إليه تحقيقنا — مسألة ترتق عند أبناء العربية

بإتمام العبادة عبادة، والفرح بقهر الشهوات عبادة، والفرح بالتغلب على الشيطان وجنده عبادة.

هذا المعنى فى العيد يسمو بالعيد عن العبث، ويجعله معنى سامياً يوحى إلى النفس معنى العزة بالنفس، ومعنى القوة والغلبة، ومعنى العظمة والانتصار، يوحى إلى النفس معنى قوة الإرادة، ويوحى إلى الناس معنى تثبيت إنسانيتهم، وأنهم خرجوا عن الأفق الذى تملكهم فيه شهواتهم إلى الأفق الذى يملكون فيه شهواتهم. والنفوس إذا أوحى إليها بما فيها من معان سامية ازدادت فيها رسوخاً، وحفزها هذا إلى تحصيل غيرها من الخلق الفاضل الكريم أرأيتم كيف كان العيد معنى إنسانياً سامياً بعد أن كان أمراً حيوانياً ضئيلاً جافاً لا حياة فيه ولا روح؟ أرأيتم كيف صار شيئاً نافعاً مفيـداً يوحى إلى النفوس معانيها من القوة والنصر على الأعداء، والارتفاع عن أفق الحيوانية المحدود، بعد أن كان شيئاً مغسولاً من النفع والسمو والخير والإفادة؟

إنما العيد عيد المجاهدين الذين جاهدوا فى الله حق جهاده، فانتصروا على النفس والشيطان؛ أما هؤلاء الذين غلبتهم أنفسهم وشهواتهم، وأخلدوا إلى الأرض، فليس لهم منه إلا الهم والحسرة، لأن الناس خرجوا منه أقوياء منتصرين، من حيث مُنُوا هم فيه بالضعف والهزيمة وبالارتكاس والخذلان.

محمد عرفة

إلى أول عهدهم بالقرآن الكريم ، حين أقبلوا على تفسيره ودراسته دراسة لغوية توطئة لفقه دقائق ما جاء به . بل ومن المحتمل غاية الاحتمال أن تكون هذه المسألة أبعد غوراً مما ذكرنا وذلك استناداً إلى ما وضح لنا من أن نشأة علوم اللغة قد سبقت العصر الإسلامى ، وأن التفلسف فيها كان ملازما لنشأتها . وقد يصبح هذا الاحتمال يقيناً لا مرية فيه ، حين تتجه الأبحاث العلمية إلى تحقيق تاريخ وضع دساتير اللغة ، وتنتهى إلى ما تطمئن إليه فى هذه الناحية

وسواء أصحت هذه الدعوى الثانية أم لم تصح ، فليس هذا الذى قام به أفاضل المسلمين الأول من تفلسف فى الأبحاث اللغوية بالأمر اليسير الشأن ، ولا هو بالمستكثر عليهم . فالعرب ، ويشاركهم فى ذلك أبناء الصين ، يفضلون فى رأى جمهرة اللغويين الحديثين ، بقية الشعوب بنزعتهم إلى التفقه فى اللغة . وهذه النزعة هى التى حملتهم على النهوض بالدراسات اللغوية نهوضاً مبكراً ، تجلى أثره فى وفرة ما صنّفه العرب من كتب ورسائل فى علوم اللغة ، كما تبين خبره فى كثير مما تفرق لهم من أبحاث فى مختلف مسائلها جاءت ضمن عدد آخر من موضوع مؤلفاتهم . وليس بغريب — وهذه حالهم — أن نجد فى بعض مصنفاتهم الخاصة بعلوم اللغة ، وكذلك تلك التى لها بعلوم اللغة صلة ، نزعة فلسفية واضحة

ويمكننا القول ، استناداً إلى ما وسعته المكتبة العربية من مصنفات وصلت إلينا ، أن الفخر الرازى كان أول من تقصى آراء المتقدمين ، وذهب إلى نقد فريق ممن تفلسفوا فى هذه المسائل . وأن السيوطى كان أول من عُنى من المتأخرين بإيضاح هذه الناحية ، وعمل على بسط آراء من تقدموه بسطاً مجملاً . وأن جولد تسيهر كان أول من اهتدى من المستشرقين إلى هذا . فلما أن وقف الغربيون على مجرى تفكير العرب هذا ، أكبروا فيهم تفقههم البكر فى اللغة ، ودهشوا لعناية العرب بهذا الضرب من التفكير الفلسفى ، قبل أن يتقدم إليه أساتذتهم اليونانيون فى الفلسفة

ولعل الذى حدا بالعرب إلى هذا النوع من التفكير الفلسفى ما أثير من قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » . فذهب جماعة من أهل السنة إلى أن لغة العرب توقيف ووحى . واتفق آخرون من أهل النظر ، وأكثرهم من المعتزلة ، على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، وجرّهم هذا الخلاف فى الرأى إلى النظر فى أمر وضع اللغة وأوليتها ومنشئها . وسلكوا فى ذلك مذاهب ؛ فالتزمت فئة منهم التحقيق العلمى لا تميل عنه فى أبحاثها ، واستسلمت فئة أخرى إلى ظنون تعوزها الأدلة ، فراحت تستجدى من الدين المعونة . وكان كلما اتسع الخلاف فى الرأى على هذه المسائل ، كان الاقتراب من الحقيقة أدنى . وكان هذا أقرب للوقوع كلما أحيطت حرية الرأى بسياج من الضمان يكفل ازدهارها . ثم صار ذلك الضمان دستوراً نافذ المفعول للدولة الإسلامية إبان سؤددها . وبقيت حرية الفكر قائمة ، مدعمة من الجميع ، مكفولة للجميع ، فأينعت علوم الدين وعلوم الدنيا . وكانت علوم اللغة إذ ذاك مشاعة بين هذه وتلك . فعلماء الدين يعتبرونها من نصيبهم ، إذ هى دعامة تفهم الديانة . وعلماء الدنيا يعدونها حقاً من حقوقهم ، إذ هى مفتاح سائر العلوم . وهكذا فازت اللغة بما لم تحظ به بقية العلوم ، إذ ارتشفت عصارة فكر الفريقين جميعاً

إلا أن هذا التهافت على خدمة اللغة أصبح لا وجود له ، بعد أن فشا استبداد الرأى فى الحكم والعلم ، وضاق النطاق على حرية القول والفكر . فكان ذلك إيذاناً بانتهاء العصر الذهبى للغة العربية . وما كان ذلك ليقع إلا ويختفى بوقوعه أعمال رهط من جهابذة علماء اللغة . فحيل بينها وبين الظهور أعماراً عديدة ، أو هى اندثرت إلى غير بعث أو نشر . ومن ثم ضاع الكثير من الدرر الغوالى التى ازدانت بها مصنفات اللغة فى العصور الإسلامية المتقدمة ، كما ضاع غيرها للعصر الجاهلى . ولا عجب وقد تمثل لنا بعض ما أصاب لغتنا ، أن يتفق الرأى ، عند أهل التحقيق من أصحاب علم العربية ، على أن الذى انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل . وما كان هذا الحال ليقعد علماء العربية عن واجبهم ، أو ليدفعهم إلى شىء من التفريط فى أمانتهم التى تشرّفوا بحملها . فظهر منهم فى العصور المتأخرة عدد من المجتهدين أرادوا بعلوم

اللغة خيراً ، فمدوا إلى ما ورثه لنا أسلافنا الأول وبدون تنميته وتعزيزه . ولكنهم أبوا أن يسايروا الزمن فيما تطورت إليه العلوم ، وما استنبط من طرائق ووسائل للقيام بأبحاث علمية ، اهتدى إليها المفكرون في الأمم النابهة ، فأصابهم ما أعجزهم عن متابعة السير ، وبقيت علوم اللغة حيث كانت .

والآن ، وقد أصاب العربية الفصحى ما أصابها ، وأدركها الركود ، فباعد بينها وبين أن تفي بحاجات الحياة في العصر الحاضر ، أو تفي بمطالب العلوم والفنون في تقدمها المطرد ، فلا سبيل لإحيائها إلا بانتهاج نهج علمي غير الذي سار عليه المتأخرون من أبناء العربية إلى اليوم . وهو وإن يكن في مجموعه جديداً بالنسبة لنا ، فقد سبقتنا إليه أمم الغرب وبعض أمم الشرق ، فجدت طلائع علمائهم في دراسة لغاتهم ، وعكف نفر منهم على دراسة لغتنا على أساس من العلم صحيح . وكان أن وفقوا إلى استنباط علوم جديدة يستكملون بها علوم العربية ؛ فأفردوا لكل من اللهجات والأصوات والدلالات اللفظية والمفردات وتشكل الكلمات والأساليب علوماً قائمة برأسها ، ثم ربطوا هذه العلوم بعضها ببعض . والتزموا فوق هذا وذاك دراسة جميع اللغات الشرقية وغيرها مما له بالعربية صلة ، وذلك توطئة لدراسة النحو المقارن للغات السامية ، وتوصلاً إلى معرفة أصل الكلمات ونسبها . وفي ذلك كله تيسير لمعرفة التطور التاريخي لمعاني الكلمات ، وتذليل لمعرفة التطور العام للغة . وما كان لهؤلاء الأجلة من العلماء ليتجشموا كل ذلك الذي وجب علينا أن نتجشمه ، إلا ابتغاء الكشف عن أسرار العربية والتشبع بروح هذه اللغة الشريفة . ولكن قد لا يتهيأ لنا ولهم الاستفادة من هذه العلوم ، استفادة ترضى الوجه الصحيح من البحث العلمي ، حتى يخرج لنا المحققون ثمين ما صنفه الأقدمون في علوم اللغة ، وفي سائر العلوم التي لها بالعربية صلة ، وذلك من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات ، على أن تكون طبعات علمية صحيحة

ومن ذلك كله يتضح لنا أن هذا النهج رغم وعورته لا مفر من انتهاجه . وإنه وإن يكن نهجاً وعر المسالك كثير الشعب ، إلا أنه كفيل بإحياء العربية والمد في عمرها أبد الآبدين . فلذا ما صحت عزيمتنا على السير فيه أدينا للعربية أجل خدمة ترجى لها في وقتها هذا . ولا شك أن حب اللغة ، ذلك الحب الذي يفضل به الإنسان الحيوان ، سوف ييسر لنا هذه المهمة الشاقة فيدفعنا إلى تحقيقها دفعاً في عزيمة صادقة ثابتة ، وبنفس راضية مطمئنة . وحين يعمل علماؤنا على أداء هذه الرسالة يتبارون ضمناً في إشعال جذوة الثقافة بين أبناء العربية ، ويساهمون فوراً في تفجر نهضة صحيحة . وقد ثبت أن لا قيام لنهضة فكرية ما لم تبدأ بإنهاض اللغة

وقد أدرك القدامى من أهل التحقيق ذلك ، إذ قالوا : لا تعمر عراص الدين والعلم والأدب إلا بطول عمر اللغة . نعم ، ولكن لا يطول عمر اللغة حتى يحال بينها وبين اكتهالها فشيخوختها ، ولا يقيها شر الشيخوخة إلا ضمان فتوتها ، ولا بقاء لفتوة إلا مع التجديد ، ولا يكون التجديد حتى يدرك تطورها ، ولا تطور يرجى حتى يتبين أصلها ونشأتها ، ولا تعرف لها نشأة حتى نهتدي إلى نشأة النطق بالكلام . وهذا ما أرجو أن أحاول بحثه في غير إطالة متوخياً عقده في فصول متتابعة .

ابراهيم ابراهيم يوسف
مساعد الأستاذ أ . فيشر
بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

من القصص الإسلامي

جارية البصرة

للأستاذ صلاح الدين المنجد

كانت الجمال تميس مَيَساناً هادئاً ، تحمل الخليفة الرشيد إلى الحج . وكان لا بدّ لها ، وقد بلغت البصرة ، من الوقوف بها ليتمتّع الرَّكْبُ بما فيها من جمال وجلال ؛ فقد كانت هادئة أنيقة ، تستفيق على همس النخيل كأنه وسوسة القُبل ، وتنام على دغدغات دجلة كأنها مُناغاة الأم ، وزغردة الوليد . وكان أهلُها ، إلى ذلك ، من أكثر الناس اقتناء للعاج والديباج ، وكان نساؤها مشهورات بالدلال ، وبيوتها ضاحكات بالفضّة باسمات بالذهب ... ونهرُها يفيض متدفقاً صخوباً يتساقط في أوله الرُّطَب ، ويتمايل على حفافيه النخيلُ والقصب .

ونزل الخليفة ، ومعه جعفر بن يحيى ، ووراءهما حاشية عريضة من المُلْهِين والمغنين والزُّهّاد .

ولم يَرَ الرشيد أن يتحوّل عن هذه المدينة قبل أن يعلم أحوال الناس فيها ؛ فدفع جعفراً إلى الطّواف بها ، ليتحسّس أخبارها ثم يعود فيخبره بما سمع وبما رأى .

فلما عاد عشيّة ذلك اليوم قال له الرشيد : « إيه يا جعفر ! حدّثني بعجيب ما رأيت ... »

قال جعفر : « لقد طوّفتُ في المدينة يا أمير المؤمنين ، فسمعتُ من ناسها ما يشكون وما يرغبون . وكنتُ أعلم كل شيء من غير عناء لتنكري . فلما كنتُ في إحدى الأسواق ، أقبل عليّ نخّاس يبيع الجواري والقيان ، وهمس في أذني أنّ لديه جارية مغنيّةً تباع ، وأنّ مولاها ممتنع من عَرْضها إلا في داره ؛ فتطلّعت نفسي إلى معرفة أمرها ، وتاقت لرؤيتها ، فمضيتُ معه ... حتى وقف عند باب شاهق يدلّ على نعمة وثراء ، فطَرقه ؛ وإذا شاب حسنُ الوجه ، دقيقُ العود ، عليه قميص ممزّق ، يفتح لنا . فدخلنا إلى دهليز طويل مظلم ... وانتهينا إلى دار واسعة خراب . فأخرج لنا الفتى من غرفة قطعةً متآكلةً من حصير ، ففرشها لنا ، وجلسنا عليها ، ثم مضى ليُحضر المغنّية ، فأخذتُ أفكر في أمر هذه الجارية ، وتساءلت لِمَ تعيش في هذه الخرائب ؟ ومن تكون ... ؟ وما شأن هذا الفتى معها ؟ ... وإذا بها تخرج علينا ، زهراء غيداء ، وعليها القميص الممزّق الذي كان يلبَسه الفتى منذ لحظات . فرأيتها صبيحة الوجه ، ميّاسة القد ، حلوة العينين ، ناهدة الثديين ، وأدهشتني ببراعة جمالها ونضارة جسمها ؛ فأمرتها بالجلوس وتقدّمت إليها بالغناء . فضربت على عود ضرباً ما سمعت أرقّ ولا أحلى حلاوة منه ، واندفعت تغنّي :

تمّتْ علينا زفرةٌ صاعدهْ ومَلّني العائدُ والعائدهْ

فلم أسمع يا أمير المؤمنين أشجى ولا أفجع ولا أطرب من غنائها . ثم أخذت تبكي ، وذرفت دمعاً هاج حزني وكلَم قلبي ، وأرسلت آهات ناعمات من صدر ملوّع وقلب مفجّع . ثم سمعنا نجأة بكاء الفتى من الغرفة المجاورة . فقامت الجارية إليه . وطرق آذاننا صوت بكاء محزن ، وشهيق أليم ؛ ثم سكنت الأصوات حتى حسبنا أنهما ماتا . فعجبنا من أمرهما ، وقلت للنخاس : « ويحك ! قم فانظر ماذا أصابهما ... » وإذا بالفتى يخرج قائلاً : « عفواً يا سادتي ... ! » ثم غلبه البكاء فلم يستطع الكلام . فأشفقتُ عليه وقلت : « ما حالك يا فتى ؟ » فبكى . فأعدتُ عليه السؤال والحثّ في الطّلب ، فتحرّك وقال :

« نشأت نشأة فريدة مغمورة بالعطف والدلال . وكان أبي موسراً ، أزهرت النعمة في دياره وتدفقت الدنانير عليه . وكنت ألهو في بستان يحيط بالقصر مع هـذه الجارية التي ربتها أمي . فكنا نرتع فوق العشب ، ونغوص في الماء ، ونتسلق النخيل ، ونطلق أنفسنا في لهو الطفولة الحلو . على أني كنت أحسّ بانقباض في صدري إذا ابتعدتْ مني ؛ وأشعر بالوحشة تغمرني كلما غابتْ عني ، فلما بلغتُ السابعة وبلغَتها ، جيء لي بمؤدب يؤدبني ، وأُتي لها بمغنية تتخرّج عليها . أما أنا فتوفرت على الأدب ألتقط النوادر ، وأحفظ الفرائد ، وأروي الأشعار والأحاديث . وأما هي فقد انقطعت إلى الغناء لتمهر في طرائقه وتبرع في أصواته . فلما أورق غصني ورف صباي ، ازداد حبها

فى قلبي ؛ وخَطَبَنِي وجوه أهل البصرة لبناتهم ، وذاع صيتى فى البيوتات ، وأصبحت أمنية العذارى والفتيات ، ورغبن فيَّ لفصاحتى وأدبى ووفرة مالى . فأعرضتُ عنهن جميعاً وصبوتُ إلى هذه الجارية التى كان الجمال يرتع فى جسمها ، والفتنة تسجو فى عينيها ، فيتحرَّق قلبى ويتألم ، ويضؤل جسمى ويرق

لقد كان صوتها ، يا مولاى ، مسكراً ناعماً حلواً . كنت أنتشى فأغمر فمها الحلو الصغير بقبلى ... أو أجثو أمام قدميها فيزداد طربى ... لقد كان فى صوتها شىء يداعب الروح لا أدرى كنهه ؛ شىء فيه نعومة وشهوة وحنين . فكانت إذا فرغت من الغناء جلست أمامى لأطربها بالأشعار ، وأضحكها بالنوادر ، وأطرفها بالأحاديث

فلما بلغ بها الغناء مبلغاً بعيداً ، عزمت أبى على بيعها ، وهى لا تدرى ما فى نفسى من وجد وشوق . فقامت الدنيا فى عينى ، وألحت نفسى فى ألوان من الأفعال أقلها الانتحار . ثم قررت أن أصدق أمى خبرى فأخبرتها . فأشفقت علىَّ ووهبتْها لى ، وجهزها أبى كما يجهز أهلُ البيوتات بناتهن وجواريهن

ونعمت معها دهراً لهوت بها عن الدنيا وما فيها . وكنت أحب سماع صوتها فى الأماسى والأصابيح تحت ظلال النخيل ، وبين القصب ؛ فكانت تغنينى فأتيه وأغيب . ولكنى وا أسفاه ! لم أصحُ من هدهدات الغناء إلا على نوح النائحات وبكاء الباكيات ؛ فقد مات أبى ، وأنا ما أزال فى ريعان الصبا

وانتقل إلىَّ بوفاته ما لا أحصيه من الأموال . على أنى لم أكد أسلو لوعة الفقد الأولى . حتى عاجل الموت أمى . فبكيت وحزنت ، ثم أغوانى الشيطان وقال : مالك والحزن ! إن شبابك يفنى وعمرك ينقضى ، فانعَم ولَذَّ بجاريتك . فأسأتُ تدبيرَ الأموال ، وعكفتُ على اللهو والقيان ، فتبلعت نعمتى ، وابتزَّت الحسان مالى ، فعشت فى هذه الخرائب كما ترى ؛ بكاء على الماضى وحنين لأيام الهناءة والنعيم

وذرف دمعة ، يا أمير المؤمنين ، وصمت . فقلت له : ثم ماذا ؟ أتمم ... أتمم ...! قال : « وبقيت على ذلك سنتين ، لا نذوق طعم اللحم إلا لماماً . وكانت يا مولاى وفية ، لا تستطيع مفارقتى رغم ما تلاقيه من ضنك العيش ومرارة الإقلال . وكانت تحبنى حباً عنيفاً ، فأدركتنى الشفقة عليها ، وقلت لها : استمعى يا أختاه ! لقد عبست لنا الأيام ، فأصبحنا كما ترين ، وأنت ما تزالين غضة الصبا ، ريانة الشباب ، وأنا آلم لما تكابدينه من البؤس والفقر ، وأعلم أني تالف متى فارقتك ، ولكنى أوثر أن أراك منعمة هانئة ، فدعينى أعرضك على أصحاب الخليفة ، فلعل واحداً يشتريك فتنعمى معه برغد العيش !

فبكت بكاء كله وله وحنين وقالت : « مالى وللطعام ، مالى وللثياب ، وأنت إلى جانبى . أنا أريدك أنت ، أنت وحدك ، لا أريد مالاً ولا ثياباً ... ! » فحزنت وقلقت ، ولكنى خرجت سراً إلى هذا النخاس فأطلعته طِلْعَ أمرى ، وأعلمته أنى لا أعرضها إلا فى دارى لئلا تمتهن بالأسواق ويراها السوقة والعوام .

فلما جئتنا الساعة ، بقيت فى الغرفة ، وألبستها ثوبى الممزق فما عندى ولا عندها غيره . وجلست أبكى . ولما دخلت علىَّ بعد غنائها قالت لى : « ألست مللتنى ، وآثرت فراق ؟ فلم تبكى بعد هذا علىَّ ! » فقلت لها : « إن فراق نفسى أسهل علىَّ من فراقك ، وإنما أردت أن أخلّصك من هذا الشقاء ! » قالت : « ألست أنا راضية بهذا الشقاء ؟ » فاضطربت ، وخرجت إليك يا مولاى لأخبرك أنى عدلت عن البيع ! »

واهتز الرشيد لطرافة الأحدوثة وحلاوة الكلام وقال : « ألا فليكن هكذا التحابون ... ! فماذا حدث بعد ذلك يا جعفر ؟ »

قال : « تركتهما يبكيان ، وأرسلت صاحب الشرطة ليبتاعها لى غصباً ! » قال الرشيد : « ويحك ! أهكذا تكون المروءة ؟ كيف تفرق بينهما وتشتت شملهما ؟ تعال يا غلام ، قم يا حماد ثم يا جعفر ، ردوا هذين المحبين إلى رغادة عيشهما وهناءة حبهما . اجمعوا بلوئام ، وأفرحوهما باللقاء والسلام ، وانثروا هذه الآلاف الثلاثة من الدنانير أمامهما ؛ فليس أنْوب من جمع التحابين ! وإن شاءا فاحملوهما إلينا واخلطوهما بحاشيتنا ، فإنهما يستحقان مباشرة الملوك

(دمشق) صموع الديه الجبر

٥ ـ خـــزانة الرءوس

فى دار الخلافة العباسية ببغداد

للأستاذ ميخائيل عواد

(ج) رأس صالح بن مدرك ، رأس جحيش بن ذيال ، رأس غلام لصالح بن مدرك

لا تخلو أخبار الحاج فى كل سنة من أحداث خطيرة تلم بهم يتعمدها قطاع الطرق والفساق ومن خرج على الدولة يومذاك ؛ فتسلب أموالهم ، ويقتل أكثرهم ، ويتيه بعضهم فى بطن الصحراء فيهلك من العطش والجوع والحر . ولا يسلم منهم إلا نفر قليل

فمن تلك الأحداث ما وقع فى سنة ٢٨٦هـ ، والخليفة يومذاك المعتضد . ذكر المسعودى أن فى هـذه السنة « ظفر أبو الأغر خليفة بن المبارك السلمى بصالح بن مدرك الطائى بناحية فَيد مكراً فى ذهابهم إلى مكة ، وقد كانت الأعراب جمعت لأبى الأغر ليستنقذوا صالحاً من يديه ، فواقعهم فقتل رئيسهم جحيش ابن ذيال وجماعة معه وأخذ رأسه ، فلما علم صالح بن مدرك بقتل جحيش بن ذيّال يئس من الخلاص من يد أبى الأغرّ ؛ فلما نزل المنزل المعروف بمنزل القرشى أتاهم غلام بطعام فاستلب منه سكيناً وقتل نفسه ، فأخذ أبو الأغر رأسه وأظهره بالمدينة فتباشر الحاجّ . وكان لأبى الأغر فى رجوعه وقعة عظيمة اجتمع هو ونحرير وغيرهما من أمراء قوافل الحاج مع الأعراب ؛ وكانت الأعراب قد اجتمعت وتحشّدت من طيء وأحلافها ، فكانت رجّالتها نحواً من ثلاثة آلاف راجل ، والخيل نحو من ذلك ، فكانت الحرب بينهم ثلاثاً وذلك بين معدن القرشى والحاجر ، ثم انهزمت الأعراب وسلم الناس . وكان ممن تولى بأبى الأغر الحيلة على صالح بن مدرك سعيد بن عبد الأعلى ، ودخل أبو الأغر مدينة السلام وقدّامه رأس صالح وجحيش ، ورأس غلام لصالح أسْوَد ، وأربعة أسارى وهم بنو عم صالح بن مدرك . فخلع السلطان فى ذلك اليوم على أبى الأغر وطوقه بطوق من ذهب ، ونُصِبَتْ الرؤوسَ على الجسر من الجانب الغربىّ ، وأُدخِلَ الأسارى المطبق »[1]

(د) رأس ابن الرضا :

وابن الرضا هذا ، هو محسن بن جعفر بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد ، ظهر « فى أعمال دمشق فى سنة ثلاثمائة ، وكانت له مع أبى العباس أحمد بن كيغلغ وقعة ، فقتل صبراً ، وقيل قُتل فى المعركة وحمل رأسه إلى مدينة السلام ، فنُصب على الجسر الجديد بالجانب الغربى »[2]

٥ ــ تعليق الرءوس بازاء دار الخلافة العباسية ببغداد :

(١) رأس بزبه

روى خبره ابن الجوزى فى حوادث سنة ٥٤٢ هـ قائلاً : « ... وورد الخبر أن بزبهْ راسل شحنة أصبهان فاستماله ورحل إليها ومعه محمد شاه . وكان السلطان مسعود مقيماً بهمذان وعساكره قليلة ؛ فأرسل إلى عساكر آذربيجان فتأخروا عنه ، فسار بزبه من أصبهان سيراً يمهل فيه ، فلما قاربها وصلت عساكر آذربيجان إلى السلطان ، وكان بزبهْ قد جاء جريدة فى خمسة آلاف فارس ، فضرب على عسكر السلطان فكسر الميمنة والميسرة ، وكان مسعود قد تأخّر عن المصاف فى ألف فارس ، وكان عسكره عشرة آلاف ، فاشتغل عسكر بزبه بالنهب والقتل ، فجاء مسعود فحمل عليهم ، فالتقى هو وبزبهْ ، فكبت الفرس ببزبهْ فوقع ، فجىء به إلى مسعود فقطع نصفين ، وجىء برأسه فَعُلِّق بإزاء دار الخلافة ... »[3]

٦ ــ تعليق الرءوس فوق باب النوبى[4]

(١) رأس ابن سنقا :

من الأخبار الواردة إلى بغداد فى شعبان من سنة ٥٦٩ هـ :

(١) مروج الذهب ٨ : ١٩١ — ١٩٣
(٢) مروج الذهب ٨ : ٢٧٩
(٣) المنتظم ١٠ : ١٢٤
(٤) باب النوبى : أحد البابين الكبيرين للحريم من دار الخلافة العباسية ببغداد ، وكان فى سور الدار شرق باب بدر . ودعى أيضاً « باب العتبة » ، وهى أقرب العتبات إلى الداخل ، وعندها كان مقام =

« أن ابن أخى شملة التركمانى ويعرف بابن سنكا قد استحدث قلعة فى ولاية باذرايا بقرب من قلعة الماهكى ، ليتخذها ذريعة إلى الإغارة على البلاد ، ونقل إليها الميرة ؛ فبعث السلطان إليه الجيوش فالتقوا ، فحمل بنفسه عليهم ، فطحن الميمنة ، فتقدم قيماز العميدى إلى الأمراء فحثهم على خوض الماء ، وكان قد فتح البثوق يحتج بها ، فخاض قيماز ومعه جماعة فغرقوا ثم اقتتلوا ، وأسر ابن سنكا ، ثم قُتِل وجىء برأسه فَعُلِّق بباب النوبة [كذا والصواب : النوبى] ... »(١)

(ب) رأس طغرلبك(٢) السلجوقى :

هو السلطان طُغْرُلْبَك شاه بن أرسلان شاه بن طغرل شاه ابن محمد بن مَلِكْشاه بن أَلْب أرسلان بن داود بن ميكائيل ابن سَلْجوق السلجوقى آخر ملوك السلجوقية بالعراق(٣) كان سفاكاً للدماء وقد هابته الملوك . قتل وزيره رضى الدين الغزنوى وفخر الدين العلوى رئيس همذان . وكان مصرعه فى سنة ٥٩٠ هـ . قال ابن كثير فى حوادث هذه السنة : « وفيها ملك السلطان خوارزم شاه تكش — ويقال له ابن الأصباغى — بلاد الرى وغيرها ؛ واصطلح مع السلطان طغرلبك السلجوقى ، وكان قد تسلم بلاد الرى وسائر مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه ، وعظم

= الخليفة ، والعتبة هذه هى التى تقبلها الرسل والملوك إذا قدموا بغداد ؛ وهى اسطوانة من الرخام الأبيض موضوعة أمام الباب الداخلى . وكان باب النوبي هذا فى بعض الزمن الباب الرئيسى لقصور دار الخلافة . راجع : معجم البلدان طبعة وستنفلد ١ : ٨٩٦ مادة توماثا ، و ٢ : ٥١٩ — ٥٢٠ مادة دار الريحانيين ، وبغداد فى عهد الخلافة العباسية ، تأليف « لسترنج » ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ؛ الترجمة العربية

(١) المنتظم ١٠ : ٢٤٤

(٢) ضبطه ابن خلكان : بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وضم الراء وسكون اللام وفتح الباء وبعدها كاف . أما ابن تغرى بردى : (النجوم الزاهرة ٦ : ١٣٠ — ١٣٦ طبع دار الكتب المصرية) : فقد أسماه طغريلبك : بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وكسر الراء المهملة وبعدها ياء ولام ساكنتان ؛ وهو اسم باللغة التركية لطائر معروف عندهم . و « بك » هو الأمير

(٣) أنظر أخباره فى النجوم الزاهرة ٦ : ١٣٤ — ١٣٦ ، أما طغرلبك أول ملوك السلجوقية فقد كان كريماً حليما ، ولا يرى القتل ، ولا يسفك دما ، ولا يهتك محرما . وكان مبدأ حكمه فى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة للهجرة

وقد ملك من هؤلاء السلاجقة نيف وعشرون ملكا ، ومدة ملكهم مائة وستون سنة .

شأنه . ثم التقى هو والسلطان طغرلبك فى شهر ربيع الأول من هذه السنة ، فقُتِل السلطان طغرلبك ، وأرسل رأسه إلى الخليفة فعُلِّق على باب النوبة [كذا والصواب : النوبى] عدة أيام ... »(١)

٧ نصب الرءوس على باب العامة(٢)

(ا) رأس هرون بن غريب الخال ، رؤوس جماعة من قواده

وهرون هذا هو ابن خال المقتدر بالله . كان ذا شأن كبير فى أيام المقتدر والقاهر ، ولما بلغه خلع القاهر وتقليد الراضى الخلافة ؛ وكان يقيم بالدينور — وهى قصبة أعمال ماه الكوفة — متقلداً أعمال الماهون بها ، وبمسبذان ومهرجا نقذق وحلوان ؛ رأى أنه أحق بالدولة من غيره لقرابته من الراضى ، فغلظ ذلك على ابن مقلة الوزير ، وعلى محمد بن ياقوت صاحب الشرطة ، وعلى الحجرية والساجية والمؤنسية ، فسار إلى بغداد حتى وافى خانقين فخاطبوا بأجمعهم الراضى ؛ فقال : أنا كاره له فامنعوه من دخول الحضرة وحاربوه إن أحوج إلى ذلك(٣)

وهكذا اشتعلت الحرب بين هؤلاء ، وبين هرون وأصحابه حتى كان فيها هلاكه . قال مسكويه فى رواية مقتله : « ولم تزل الحرب غليظة إلى أن قارب انتصاف النهار ، وركب هرون بن غريب مبادراً ، وسار منفرداً عن أصحابه على شاطىء نهر بين يريد قنطرته لما بلغه أن ابن ياقوت قد عبر القنطرة ، وقدر أنه يقتله أو يأسره ، فتقطر به فرسه فسقط منه فى ساقية ، فلحقه يمن غلامه فضربه حتى أثخنه بالطبرزينات ، ثم سل سيفه ليذبحه فقال له هرون : يا عبد السوء أنت تفعل هذا وتتولى بيدك قتلى أى شىء أذنبت به إليك ؟ فقال له : نعم أنا أفعل بك هذا وحز رأسه ورفعه وكبر فتبدد رجال هرون ... وسار محمد بن ياقوت

(١) البداية والنهاية ١٣ : ٩

(٢) باب العامة : هو الباب الآخر الكبير من أبواب دار الخلافة العباسية ببغداد ؛ وكان يعرف أيضاً « بباب عمورية » ، وقيل إن أبوابه الحديدية الضخمة جاء بها المعتصم إلى بغداد من عمورية فى حدود سنة ٢٢٣ هـ ، والظاهر أن باب العامة هذا كان المدخل الرئيسى إلى أراضى القصر الحسنى

انظر باب العامة هذا فى : الطبرى ٣ : ١٣٩٤ ، ١٤١٩ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٥٠٣ ، وتجارب الأمم ٥ : ٣١٩ ، والمنتظم ٦ : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ٢٧٦ ، ولسترنج ص ٢٣٣ — ٢٣٤ ؛ الترجمة العربية

(٣) تجارب الأمم ، ٥ : ٣٠٦ — ٣٠٧

إلى موضع جثة هرون فأمر بحملها إلى مضربه فحملت وأمر بتكفينه ودفنه. ودخل بغداد وبين يديه رأس هرون وعدة من قواده فأمر الراضى [١] بنصب الرؤوس على باب العامة »[٢]

٨ - نصب الرءوس على أسوار السجون ببغداد

(ا) رأس أبى يزيد خالد بن محمد الشعرانى

ذكر قصته الطريفة عريب بن سعد القرطبي فى مدار كلامه على أخبار بنى العباس فى سنة ٣٠٤هـ، فقال: « وفى المحرم من هذه السنة ورد كتاب صاحب البريد بكرمان يذكر أن خالد بن محمد الشمرانى المعروف بأبى يزيد؛ وكان على بن عيسى الوزير ولاه الخراج بكرمان وسجستان، خالف على السلطان، ودعى أميراً وجمع الناس إلى نفسه ... فكتب المقتدر إلى بدر الحمامى فى إنفاذ جيش إليه ومعاجلته، فوجه إليه بدر قائداً من قواده يعرف بدَرَك، وكتب بدر قبل إنفاذ الجيش إلى أبى يزيد الشعرانى يرغبه فى الطاعة، ويتضمن له العافية مع الانهاض فى المنزلة وخوفه وبال المعصية فجاوبه أبو يزيد: والله ما أخافك، لأنى فتحت المصحف فبدر إلى منه قول الله عز وجل (لا تخاف دركا ولا تخشى) [٣] ومع ذلك فنى طالعى كوكب يمانى لا بد أن يبلغنى غاية ما أريد. فأنفذ بدر الجيش إليه، وحوصر حتى أخذ أسيراً فقيلت فيه أشعار منها:

يا أبا يزيد قاتل البهتان ... لا تغتر بالكوكب اليماني
واعلم بأن القتل غاية جاهل ... باع الهدى بالغى والعصيان
قد كنت بالسلطان عالى رتبة ... من ذا الذى أغراك بالسلطان

ثم أتى الخبر بأن أبا يزيد هذا مات فى طريقه، فحمل رأسه إلى مدينة السلام، ونصب على سور السجن الجديد » [٤]

(ب) رءوس ثلاثة رجال من أصحاب الحلاج:

بعد مقتل الحلاج تفرق أصحابه أيدى سبأ: فمنهم من ذهب إلى خراسان، ومنهم من بقى فى العراق متوارياً عن الأنظار، بينا رجال الشرطة وأصحاب الأخبار لا يألون جهداً فى البحث عنهم. فمن أخبارهم فى سنة ٣١٢هـ أن نازُوك، وكان يومذاك صاحب الشرطة « جلس فى مجلس الشرطة ببغداد، فأحضر له ثلاثة نفر من أصحاب الحلاج، وهم حيدرة والشعراني، وابن منصور. فطالبهم بالرجوع عن مذهب الحلاج فأبوا؛ فضرب أعناقهم ثم صلبهم فى الجانب الشرقى من بغداد، ووضع رؤوسهم على سور السجن فى الجانب الغربى [١]

(يتبع)

ميخائيل عواد

---

(١) قال ناشر تجارب الأمم: « وفى الأوراق: فجىء برأسه إلى الراضى فأظهر سروراً بذلك وسلمه إلى أهله، فدفن بقرب قبر أبيه فى قصر عيسى بن على فى الكرخ فى الجانب الغربى »

(٢) تجارب الأمم (٥ : ٣٠٩)؛ وذكر ابن الأثير هذه الحادثة فى سنة ٣٢٢هـ: (الكامل ٨ : ٢١٥ — ٢١٦؛ أوربة = ٨ : ٩٩ — ١٠٠؛ بولاق)

(٣) كمال الآية: « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دركا ولا تخشى (سورة طه ٢٠ : ٧٦)

(٤) صلة تاريخ الطبرى (ص ٦٠ — ٦١ طبع ليدن)

(١) المنتظم (٦ : ١٨٩)

٤٦ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

الفصل الرابع عشر

الصناعة

من المحزن أن يوازن المرء بين فقر مصر الآن، وبين ر[illegible]ها قديماً حينما كان اختلاف الصناعات وأناقتها وإتقانها تثير إعجاب الأمم المجاورة. وكان المصريون في غنى عن التجارة الخارجية لتنمية الثروة أو زيادة الرفاهية. وقد دل الكشف عن الآثار على أن المصريين انفردوا إلى حد كبير في السمو بالفنون في عهد موسى وقبل ذلك أيضاً. ولم يكن الفراعنة والكهنة وقواد الجيش في تلك الأزمنة الغابرة يعيشون وحدهم في ترف رفيع ويلبسون أرق الأنسجة الكتانية ويجلسون على سرر وكراسي نستخدمها نماذج لأثاث أبهائنا الحديثة، بل كان الكثير من أغنياء المزارعين وغيرهم من الأفراد كأولئك. ولا تزال الطبيعة تجود بنعمها على سكان وادي النيل، كما كانت في قديم الزمن. غير أن المصريين لم يعودوا ينعمون لعدة أجيال بحكومة مستقرة، فكان كل من الولاة المتعاقبين في هذه المدة الطويلة يعمد إلى تنمية ثروته الخاصة، لعدم توطد ولايته. وهكذا هلك بالتدريج كثير من المصريين وقضي على الباقين أن يعيشوا في عوز أليم. وإذ كان الذكور من السكان يكاد عددهم يزيد على القدر اللازم لزراعة الأراضي التي يغمرها الفيضان أو يسهل ريها بالوسائل الصناعية، كان عدد هؤلاء الذين يحترفون الصناعة في هذا البلد شديد القلة نسبياً. ولا تنم أعمال المصريين عن براعة كبيرة لقلة التنافس وعدم تشجيع الأغنياء. غير أن انحطاط الصناعات اليدوية يرجع إلى حد بعيد إلى سبب آخر وهو أن السلطان سليم التركي بعد أن غزا مصر نقل على ما قال الجبرتي[1] عدداً كبيراً من البارعين في الحرف التي لا تمارس في تركيا فقضى بذلك على أكثر من خمسين صناعة يدوية في مصر

حرم الإسلام كما سبق أن بينت، استخدام التصوير والنحت في رسم الأحياء، غير أن بعض المسلمين المصريين يحاول رسم الرجال والأسود والجمال وغيرها من الحيوان والزهور والقوارب وذلك على الأخص لزخرفة واجهات الحوانيت وأبواب الحجاج كما يقولون، وإن كانت محاولاتهم هذه تفوقها رسوم صغار الأطفال عندنا. ولكن الدين الإسلامي يسر الصناعة خاصة باستلزامه أن يعرف كل امرىء فناً أو عملاً يمكنه وقت الضرورة من سد حاجته وإعالة من يتولى أمرهم والقيام بواجباته الدينية والأدبية. ويبرع المصريون على الأكثر في فن العمارة، فتجد أجل نماذج العمارة العربية في العاصمة المصرية وضواحيها. وليست المساجد والأبنية العامة الأخرى وحدها هي التي تستحق الاعتبار لعظمتها وجمالها، ولكن الكثير من المساكن الخاصة أيضاً تثير الإعجاب ولا سيما هيئتها الداخلية وزخرفها. على أن هذا الفن كأغلب الفنون الأخرى انحط كثيراً في السنوات الأخيرة؛ فقد أخذ المصريون عن الأتراك طرازاً جديداً ساذج الشكل بعضه شرقي وبعضه أوربي وفضلوه على العربي. وتنم الأبنية ذات الطراز القديم، أبوابها وسقوفها وبلاطها، التي سبق وصفها، عن ذوق فريد. وكذلك أكثر الصناعات المصرية تنم عن الذوق وإن كان الكثير منها ينقصه الإتقان. وكان الخراطون، وشغلهم الأول عمل الشبابيك، كثيري العدد، وكان عملهم حينذاك أكثر إتقاناً: أما الآن فقد قلت أعمالهم، لأن نوافذ

(١) في ابتداء كتابه (المؤلف)

قال الجبرتي في الجزء الأول من تاريخه عند ذكر ملوك الجراكسة: «وأخذ (أي السلطان سليم) نخبة ما انتقاه من أرباب الصنائع التي لم توجد في بلاده بحيث أنه فقد من مصر نيف وخمسون صنعة» (المترجم)

المنازل الحديثة تصنع من الزجاج . ولا يظهر المصريون المحدثون فى صناعة الزجاج التى اشتهروا بها قديماً مهارة كبيرة ، فقد انحط عندهم فن الزجاج الملون ؛ غير أنهم لا يزالون موضع الإعجاب فى صناعة النوافذ الزجاجية وإن لم يكن ذلك بقدر ما كان فى السنوات الماضية قبل أن ينقص تفضيل الطرز الجديد من أعمالهم . والصناعة الخزفية فى مصر غليظة ، وهى تشمل عمل القلل والجرار لحفظ المياه وتبريدها . ويستحق المصريون الشهرة التى نالوها فى مهارة إعدادهم السختيان . ويستعمل المصريون السعف وأوراق النخيل فى صناعات مختلفة فيصنعون من السعف الأقفاص والكراسى والصناديق والسرر الخ ... ومن الأوراق السلال والقفف والحصر والمكانس والمذبات ، وغير ذلك من الآلات . ويفتلون من ألياف النخيل أكثر الحبال المصرية . ويصنعون أحسن الحصر التى يستخدمونها صيفاً بدل البسط ، من البردى . وقد فقدت مصر الشهرة التى نمت بها قديماً فى صناعة الكتان الرقيق ؛ فالملابس الكتانية والقطنية والصوفية التى تغزل فى هذا البلد غليظة الصنف حقيرته .

اشتهر المصريون طويلاً فى صناعة التفريخ . ويبدو أن هذه الصناعة كانت شائعة فى مصر فى سالف الأزمنة وإن وصفها الكتاب الأولون وصفاً غامضاً . وهم يطلقون فى الوجه البحرى على البناء الذى يتم فيه التفريخ « معمل الفراخ » وفى الصعيد « معمل الفروج » . وفى الوجه البحرى أكثر من مائة معمل ، وفى الصعيد أكثر من نصف ذلك العدد . ويعين أغلب مراقبى هذه المعامل إن لم يكن جميعهم من الأقباط . وتفرض الحكومة على هذه المعامل ضريبة . ويبنى المعمل بالآجر أو اللبن ويتكون من أفران ومواقد صغيرة للنار على صفين متوازيين يفصل بينهما دهليز معقود ضيق . ويبلغ حجم كل من الأفران تسع أقدام أو عشرا طولاً تقريباً ، وثمانى أقدام عرضاً ، وخمسا أو ستا ارتفاعاً . ويعلو كلا منها موقد مقبو لا يختلف عنها حجماً والأفضل أن يكون أقل ارتفاعاً . ويتصل الفرن بالدهليز بواسطة فتحة تسمح للانسان بالدخول كما يتصل الموقد بفتحة مماثلة . وتتصل المواقد فى الصف نفسه بعضها ببعض أيضاً ولكل كوة فى قبوه لمرور الدخان ولا تفتح إلا عرضاً . وكذلك الدهليز يوجد به عدة كوى كالسابقة فى سقفه المعقود . ويوضع البيض فى الأفران ، فوق الحصر أو على القش عادة ، على طبقات ثلاث يعلو بعضها بعضاً . ويحرقون السرقين (الجلة) فى المواقد التى تعلو الأفران ثم يقفلون مدخل المعمل بإحكام . ويتقدم المعمل حجرتان أو ثلاث حجرات صغيرة للمراقب والوقود والفراخ الناقفة حديثاً .

ويجرى هذا العمل شهرين أو ثلاثة فى صيف كل عام . ويبدأ التفريخ مبكراً فى الصعيد . ويشمل كل معمل بين اثنى عشر وأربعة وعشرين فرناً ، ويتلقى حوالى مائة وخمسين ألف بيضة فى الموسم السنوى ، يخيب منها ربعها أو ثلثها . ويورد الفلاح البيض فيفحصه المراقب ويناول الفلاح عادة مقابل كل بيضتين فرخة صغيرة . ويستعمل نصف الأفران فى الأيام العشرة الأولى ، وتوقد النار فى المواقد العشرة التى تعلوها ، ثم تطفأ فى اليوم الحادى عشر . وتوقد المواقد الأخرى ويوضع البيض الطازج فى أسفل الأفران . وفى اليوم التالى ينقل بعض البيض من الأفران السابقة ويوضع فى رماد مواقدها . وتظل الحرارة أثناء العملية بين مائة ومائة وثلاث درجات بقياس فارنهايت . ويعرف القائم بهذا العمل من تجاربه الطويلة الحرارة اللازمة لنجاح العملية دون الاستعانة بآلة ترشده لتعوده هذا العمل من صغره . وفى اليوم العشرين ينقف بعض البيض الموضوع أولاً . ولكن أغلبه يفرخ فى اليوم الحادى والعشرين . وتوضع الفراريج الضعيفة فى الدهليز وما بقى يوضع فى أقصى الغرف الداخلية حيث تبقى يوماً أو اثنين قبل أن تسلم إلى مستحقيها . وعند ما تنقف البيضات الأولى ونصف الثانية تتلقى الأفران التى كانت فيها دفعة ثالثة ، ثم توضع دفعة رابعة بالطريقة نفسها عند ما تفرخ الدفعة الثانية . ولا يقل الدجاج الذى نقف بهذه الطريقة طعماً عن دجاج البيض الذى يحتضن طبيعياً . ويقل دجاج مصر وبيضه فى كلتا الحالتين حجما وطعماً عن دجاج بلادنا وبيضه . وقد وجدت فى إحدى الجرائد المصرية التى تنشر بأمر الحكومة (العدد ٢٤٨ : ١٨ رمضان سنة ١٢٤٦ ، ٣ مارس سنة ١٨٣١) الإحصاء التالى :

	الوجه البحرى	الوجه القبلى
عدد معامل التفريخ فى العام الحالى	١٠٥	٥٩
عدد البيض المستخدم	١٩٬٣٢٥٬٦٠٠	٦٬٨٧٨٬٩٠٠
عدد البيض المعطوب	٦٬٢٥٥٬٨٦٧	٢٬٥٢٩٬٣٦٠
عدد البيض المفقس	٣٬٠٦٩٬٧٣٣	٤٬٣٤٩٬٢٤٠

لا تزال تجارة مصر عظيمة وإن انحط شأنها كثيراً منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بين أوربا والهند، ونتيجة لسياسة محمد علي وخلفائه باحتكار التجارة والاستيلاء على البضائع . وقد تقدمت التجارة كثيراً في السنوات القليلة الأخيرة لاستخدام البواخر الكثيرة بين الأسكندرية وانجلترا وفرنسا والنمسا من ناحية، وبين السويس والهند من ناحية أخرى، وبإنشاء السكك الحديدية في الوجه البحري .

تستورد مصر الأقشة الصوفية من أوربا ومن فرنسا خاصة، والشيت والموصلي الساذج والمصور للعمائم من اسكتلندة، والحرير والمخمل والكريشة والشيلان المقلدة عن الكشميري من سكوتلندا وانجلترا وفرنسا، وورق الكتابة من البندقية خاصة، والأسلحة النارية والنصال المستقيمة من ألمانيا وتستورد هذه للنوبيين الخ . والساعات والفناجين والأواني الخزفية والزجاجية المختلفة وأغلبها من ألمانيا والخردة والألواح الخشبية والمعادن والخرز والنبيذ وغيره من المشروبات . وكذلك يستوردون الرقيق الأبيض والحرير والمناديل والفوط المطرزة ومباسم الشبك والبوابيج وضروبا من السلع المصنوعة والأدوات النحاسية والبرونزية الخ . من الآستانة، ويستوردون من آسيا الصغرى البسط وسجاجيد الصلاة والتين الخ، ومن سورية الدخان والحرير المخططة والعباءات والصابون، ومن جزيرة العرب البن والتوابل وعقاقير عديدة والسلع الهندية كالشيلان والحرير الموصلية الخ، ومن الحبشة وسنار أقراص التمر الهندي والصموغ والسنا المكي، ومن الغرب، أي شمال أفريقية غرب مصر، الطرابيش والبرانس والأحرمة وأحذية الجلد السختيان الأصفر .

وأهم ما يصدر إلى أوربا القمح والذرة والأرز والفول والقطن والعنب واللب والنيلج والبن والتوابل المختلفة والصموغ والسنى والعاج وريش النعام، وإلى تركيا العبيد السود والأحباش ذكوراً وأناثاً والأغاوات والأرز والبن والتوابل والحناء الخ، وإلى سوريا العبيد والأرز الخ، وإلى جزيرة العرب الحبوب خاصة وإلى سنار والبلدان المجاورة القطن والكتان والصوف وبعض الحرير المخططة السورية والمصرية والأبسطة الصغيرة والخرز وحلى أخرى، والصابون والسيوف المستقيمة السابق ذكرها والأسلحة النارية والأدوات النحاسية وورق الكتابة .

(يتبع)

عدلي طاهر نور

بين الحب والحظ

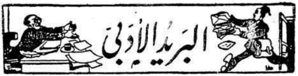
ســـلمى

للأستاذ على شرف الدين

حَنِينُ فُؤادٍ عادَ لِى مِنْهُ مَا بَدَا   وَكَم رَائحٍ يَأْتِى بِأَخْبَارِ مَنْ غَدَا
بِقِيَّةُ دَمْعٍ فى جُفُونِى تنبَّهتْ   وَآثَارُ جَمْرٍ فى ضُلُوعِى توَقَّدَا
وَقَدْ كُنتُ وَدَّعْتُ الْهَوَى وَشُجُونَهُ
فَلَمَّا رَأَتْ عَيْنَاىَ (سَلْمَى) تَجَدَّدَا
قَصِيدَةُ شِعْرٍ صَاغَهَا اللهُ فِتْنَةً   سَمَاوِيَّةُ الأَلْحَانِ عُلْوِيَّةُ الصدَا
يَطُوفُ بِهَا فى رَفْرَفِ الْخُلْدِ طَائِرٌ
إِذَا لَاحَ ضَوءُ الصُّبْحِ رَاحَ مُغَرِّدَا
وَزَهْرَةُ رَوْضٍ قَبَّلَ الْفَجْرُ ثَغْرَهَا
وَأَلْقَى لَهَا فِى جَيْبِهَا الْعِطْرَ وَالنَّدَا
أَرَقُّ مِنَ الأَطْيَافِ فى قَلْبِ رَاهِبٍ
تَبَتَّلَ حَتَّى صَـــارَ رُوحاً مُجَرَّدَا
وَأَجْمَلُ مِنْ عُرْسِ الرَّبِيعِ بِرَبْوَةٍ
وَأَرْوَعُ مِنْ فَجْرٍ عَلَى الرِّيفِ قَدْ بَدَا
تَوَدُّ النُّجُومُ الزُّهْرُ لو كان نظمُها   عَلَى جِيدِهَا المَطْلُولِ عِقْداً مُنَضَّدا
وَطَيْرُ مُرُوجِ الرِّيفِ لَوْ سَالَ لَحْنُهَا   مَعَ الصُّبْحِ مِنْ سَلْمَى حَدِيثاً مُرَدَّدا
فَيَا ظَبْيَةَ الْفِرْدَوْسِ فَرَّتْ وَلَمْ تَعُدْ
عَجِبْتُ لِمَنْ لا يَرْتَضِى الْخُلْدَ مَتْهَدا
وَيَا فَرْحَةَ الدُّنْيَا الَّتِى هَزَّ بِشْرُهَا   جَوَانِحَ قَلْبٍ كَانَ لِلْحُزْنِ مَعْبَدا
وَيَا سَلْوَةَ الْمَحْزُونِ ضَاعَ جِهَادُهُ
حَوَى شَبَحاً نِضْواً وَفِكْراً مُشَرَّدا

وَيَا أَمَلَ الْمَظْلُومِ عُفِّرَ حَظُّهُ   فَعَادَ كَسِيرَ الْقَلْبِ حَيْرَانَ مُجْهَدا
لَئِنْ حَجَبَتْ نَجْمِى عَلَى الأُفْقِ غَيْمَةٌ
فَقَدْ مَلَأَتْ سَلْمَى سَمَائِىَ فَرْقَدا
وَإِنْ صَيَّرَتْنِى كَبْوَةُ الْحَظِّ مُخْفِقاً   فَحَسْبِى نَجَاحاً أَنْ أَرَاهَا فَأَسْعَدا
نَسِيتُ بِكِ الآلامَ وَهِىَ كَثِيرَةٌ   وَبَدَّلْتِنِى مِنْهَا السُّرُورَ الْمُجَدَّدا
وَأَبْصَرْتُ جُنْحَ اللَّيْلِ أَزْهَرَ مُشْرِقاً
وَكُنْتُ أَرَى قَبْلاً سَنَا الصُّبْحِ أَرْبَدا
وَشَاعَ الرِّضَا فى جَبْهَـــةٍ فَاضَ نُورُهَا
وَقَدْ كُنْتُ عُمْرِى سَاخِطاً مُتَمَرِّدا
وَإِنِّى عَلَى حُبِّى الْحَيَاةَ وَهَدْيِهَا   مَدِينٌ لِسَلْمَى بِالْحَيَاةِ وَبِالْهُدَى
خَيَالٌ لَهَا مِثْلُ الْحَقِيقَةِ طَيْفُـــهُ
أَكَادُ مَعَ النَّجْوَى أَمُدُّ لَهُ يَدَا
لَعَمْرُكَ مَا سَلْمَى سِوَى أُقْحُوَانَةٍ
لَهَا صُورَةُ الإِنْسَانِ جِسْماً مُجَسَّدا

على شرف الدين



من شاعر إلى شاعر

[أهدى الأستاذ الشاعر علي محمود طه نسخة من ملحمته الرائعة « أرواح وأشباح » إلى صديقه الأستاذ محمد عبد الغني حسن ولم يكن قد أتيحت له قراءتها إلا بعد أن سلم من ثورة نفسية جامحة فأرسل إليه هذه الأبيات] :

هذا كتابك أشباحٌ وأرواحُ ... شعر من النغم العلويّ لمّاحُ
فيه من الفنّ إشراقٌ وتجلية ... وفيه من ومضات الروح أوضاح
فيه من السحر ماهاروتُ يصنعُه ... وخمرِ بابلَ ما لا تصنعُ الراح
أقررتَ عيني وعين المعجبين به ... بكل معنى إليه النفس ترتاح
الشعر ما الشعر إلا روضة عبقت ... وأنت فيها طليق الصوت صدّاح
سريتَ في الشعر مَسْرى الملهمين كما ... يسرى نسيم على الأسحار فوّاح
فأنتَ في جوّه العلويّ منطلق ... وأنت في بحره اللجيّ ملّاح

محمد عبد الغني حسن

إنصاف الأب الكرملي

اطلعت في العدد الأخير من « الرسالة » على قطعة بعنوان « الكرملي في قبضة الحق » بقلم الأستاذ سعيد الأفغاني في دمشق . وإنصافاً للأب المحترم أقول :

خطأ الكاتب الأب ، لأنه أنكر « أحجاراً ماساء » وصححها « بأحجار ملس » وقال : « لك أن تقول أشهر محرمة ومحرمات وأياماً معدودة ومعدودات » ولم يأتنا بمثل من القرآن أو الحديث أو كلام بليغ على مثل « مباسم فلجاء وعيون دعجاء وحواجب بلجاء » ، بل الذي ورد من ذلك « لو رأيتم العيون الدعج تحت الحواجب البلج فوق المباسم الفلج لاتخذتموها اللات والعزى » ولم يرد غير ذلك على الإطلاق في كلام فصيح

وغريب قول الأفغاني « أما استقراؤهُ الشخصي أي الأب وطلبهُ من مخالفيه الإتيان بشاهد فلا يردان حجة ، لأن القيس لا يلزم لهُ (يريد يلزمه) شاهد . يريد أن يقول إن عندنا قاعدة جميع شواهد اللغة شواذّ منها

لكن مجمعنا اللغوي فهم ما لا يفهمه الكاتب ولا أحسب الكاتب ينكر أن مجمعنا يحتج بكلامه .

فقد جاء في الصفحة ٢٠٤ من الجزء الرابع من مجلته قوله :

القاعدة : فعلاء مؤنث افعل كحمراء تجمع باطراد على فُعْل

قال ابن يعيش : « فأما فُعْل فهو جمع فعلاء صفة إذا كانت مؤنثة افعل نحو حمراء وحمر وصفراء وصفر جموعه على فعل جمع ما لا زائد فيه الخ ...

فكريات بيضاء ليست صحيحة ، وهذا ما كلت ألسنتنا وحفيت أقلامنا لإفهام أدبائنا إياه

نجيب شاهين

شبهة في تاريخ وفاة ياقوت

من المعروف أن صاحب معجم الأدباء « ياقوت بن عبد الله الرومي » توفي عام ٦٢٦ من الهجرة . وقد نص على هذا ابن خلكان في تاريخه ؛ عند ما ختم ترجمته لحياته بقوله : وتوفي يوم الأحد لعشرين من شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة في الخان ، بظاهر مدينة حلب

وعن ابن خلكان نقل ابنُ العماد صاحب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) ، وجرى على هذا جميع أصحاب التراجم من المتأخرين . . .

ولكني وجدت ياقوتاً في معجمه (ج ٢ ، ص ١٩٨ ، طبع دار المأمون) يتحدث عن الحسن بن أبي المعالي المعروف بابن الباقلاّني النحوي ... ثم يختم حديثه عنه بقوله : « لقيته ببغداد سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وكان آخرَ العهد به » . ونفهم من هذا أن ياقوتاً كان يعيش في ذلك التاريخ ، بل يمكن أن نستنبط من قوله « وكان آخر العهد به » أنه يشير إلى وفاة ابن الباقلاني ، وحدوثها في تلك السنة . ويؤيد هذا ما أورده السيوطي في كتابه (بغية الوعاة في ذكر طبقات النحاة) ؛ فقد نقل عن ابن النجار صاحب تاريخ بغداد أن وفاة الباقلاني كانت « يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وستمائة »

هذه حقائق تاريخية تصطدم في ذهن القارئ ولا يجد

لواحدة منها مرجِّحا ؛ فهل نشك فى صحة ما أجمع عليه المؤرخون من تاريخ وفاة ياقوت ، أم نخطِّئ ما ورد بمعجمه من تاريخ التقائه بابن الباقلانى ؟ وإذا أخذنا بالرأى الأخير ، فهل نحمل السهو فى ذلك على ياقوت نفسه ، أم نحمله على ناسخى معجمه والقائمين بطبعه من القدماء والمحدثين ؟ ...

هذا شيء ، والشيء الآخر أن مكان هذه المقابلة — فضلاً عن تاريخها — موضع « للتفكير . فياقوت ، كما نفهم من كلام ابن خلكان ، لم يطرق بغداد منذ حوالى سنة ٦٠٠ هـ ، بل إنه « تحامى دخولها » وهو يقترب منها عند انتقاله متخفياً من إربِل إلى خراسان عام ٦١٣ هـ ؛ لأن له غريماً « علويا » من أهلها كان قد ناظره فى دمشق وألّب عليه العامة حتى كادوا يقتلونه ؛ وكان هذا سبب هروبه إلى خراسان ، فكيف إذن يزعم ياقوت أنه لقى ابن الباقلانى فى بغداد ؟ وإذا قلنا إنه لقيه بها قبل عام ستمائة (أى تسع وتسعين وخمسمائة فما قبله) فكيف يتفق أن يقع الخطأ أو التحريف فى ثلاثة أرقام كاملة ، فنقرأ أن هذا اللقاء كان فى سنة « سبع وثلاثين وستمائة » ؟ ...

(جرجا) **محمود عزت عرفة**

المكتب

قال الدكتور زكى مبارك وهو يدرس الشوقيات عند ما تعرض لقصيدة « مصاير الأيام » ما يلى : [... ابتدأ الشاعر يريد شوقى] بحياة الطفل فى المكتب ، والمكتب كلمة جديدة يراد بها المدرسة الأولية ، وهى كذلك فى عرف وزارة المعارف فهى تقول المكاتب العامة بعد أن كانت تقول المدارس الأولية »

وقد نفهم من ذلك أن المكتب بمعنى المدرسة الأولية وضع جديد والصحيح أنه استعمال قديم ، ودليلى على ذلك ما يلى :

١ — قال المبرد : « المَكْتَب موضع التعلم والمُكْتِب المعلم ، والكُتّاب الصبيان ، ومن جعل الموضع الكُتّاب فقد أخطأ » ويرى هذا الرأى صاحب القاموس ولكن صاحب تاج العروس رده .

٢ — قال ابن خلكان فى ترجمة أبى مسلم الخراسانى : « إنه نشأ عند عيسى بن معقل فلما ترعرع اختلف هو ووالده إلى المكتب » وغير خاف أنه فى هذا الدور من حياته يتعلم التعليم الأولى .

٣ — روى ابن قتيبة فى كتاب المعارف : « أن من المعلمين علقمة بن أبى علقمة مولى عائشة ... كان له مكتب يعلم فيه العربية »

٤ — وأوضح من هذا ما قاله الغزالى فى كتاب الإحياء فى باب رياضة النفس ج ثالث : « ويُشغل الطفل فى المكتب بتعلم القرآن ، وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم ... وينبغى أن يؤذن للطفل بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب التعلم » .

محمود السيد أبو السعود

بنى أمية والإسلام

قرأت ما كتبه الأستاذ محمود أبو رية حول كتاب « عبقرية عمر » للأستاذ عباس محمود العقاد . والحق يقال إن الأستاذ قد غالى كثيراً فى قوله إن البناء الإسلامى قد تصدع ، وإن اليأس أخذ يدب فى جسم الدولة الإسلامية فى عهد بنى أمية ، واستشهد على ذلك بقول الإمام على : « إن موت عمر ثلمة فى الإسلام لا ترتق إلى يوم القيامة »

والباحث المنصف فى تاريخ الإسلام لا يسعه إلا أن يقرر أن الدولة الإسلامية لم تصب حظاً من العظمة وامتداد السلطان مثل ما أصابته فى عصر الدولة الأموية

وكيف يدب اليأس فى قلوب المسلمين فى عصر بنى أمية وهم الذين ركبوا البحر فى هذا العهد لأول مرة ، وكان لهم فوق الخضم المتلاطم صولات وجولات هى صفحة بيضاء فى كتاب الشجاعة الإسلامية ؟ ! وهذا عقبة بن نافع يسير بكتائب المسلمين فى محاذاة الشاطئ الأفريقى مخترقاً المجاهل والقفار حاملاً لواء الإسلام خفاقاً فى بلاد كل ما يعرفه عنها أن أهلها همج متوحشون لم تصلهم مدنية ولا حضارة !

أما قول الإمام على ، فما أظن أن الإمام كان يقصد أن البناء الإسلامى قد تصدع بموت عمر ، إنما كان قصده أن الإسلام قد خسر بموت عمر رجلاً من خيرة رجالاته ومن العسير أن يجد الناس منه عوضا .

أحمد البديعى

فلسفة الأخلاق في الإسلام

الأستاذ محمد يوسف من العلماء الباحثين والكتاب المرونين الذين عناهم الأستاذ الزيات في مقالته الغراء « دفاع عن البلاغة »[١]

فهو يكتب عن دراسة مستفيضة وتحليل عميق ، فيخرج الفكرة ناضجة ، ويبدى الرأى خيراً ، ويجلى البحث مكتملاً من جميع نواحيه

ولعل هذا هو السر فى ظواهر ثلاث نلمسها لمساً فى كتابه « فلسفة الأخلاق فى الإسلام »

١ — النشر والطى ، والتفصيل والإجمال ، والعرض والتلخيص ؛ مما يبلغ حد التكرار أحياناً ويؤاخذ به من لم يقصد إلى الإيضاح والتحرير

٢ — الدقة البالغة فى الشرح والموازنة ، وتجلية الغامض من عبارات الفلاسفة ومصطلحات الصوفية ، إلى أمانة فى النقل نادرة ؛ مما حداه إلى كثرة الاستدراك ، وإيراد الجمل المعترضة التى لا تكاد تخلو منها صفحة واحدة وإثبات النصوص مسندة إلى مصادرها الكثيرة المتنوعة

٣ — السداد فى النظر ، والعدالة فى الحكم بعد استقصاء وجوه الرأى ، من غير ما سفه ولا شطط حتى لا تحوك فى الصدر شبهة دون أن يذيبها بقول سديد أو رأى رشيد

غير أن إصابة الأستاذ للغرض ، ومصاحبته للتوفيق ، ونزاهته فى الحكم ـ لا تحول بيننا وبين الإدلاء بهذه الملاحظات الخفيفة خدمة للعلم ووفاء للحق « والحق لا يصح أن نجامل على حسابه أحداً من الناس وإن كان زين الدين وحجة الإسلام والمسلمين »[٢]

(ا) كنا نود أن يقتصد المؤلف ولو صفحة واحدة مما كتب فى ابن عربى الذى هو إلى فلاسفة التصوف أقرب منه إلى فلاسفة الأخلاق ، فيضمها إلى الكتابة عن أبى الحسن البصرى الماوردى الذي أشار الأستاذ بحق إلى أن كتابه « أدب الدنيا والدين » مما يمثل الأخلاق الإسلامية أصدق تمثيل[٣] على حين لم يظفر من الكتاب إلا ببضعة أسطر . وإذا لم تكن ترجمة أبى الحسن من أغراض الكتاب فلا ريب أنها — على الأقل — من قبيل الاستطراد المفيد

(١) عدد « الرسالة » ٤٨٨

(٢) ما بين الأقواس من كلام المؤلف ص ١٦٠

(٣) هذا الكتاب كما يقول المؤلف علي ما فيه من أحاديث هى بحكم الحكماء أشبه

(ب) مما يثير العجب والأسف معاً أن بعض أئمة الأخلاق والتصوف — بَله الأدب والفلسفة — ليسوا من أهل البصر فى علم الحديث ؛ ولقد روى عن الغزالى رحمه الله أنه قال : بضاعتى فى هذا العلم مزجاة ؛ وسبب ذلك عند علماء الحديث معروف[١] ؛ فكنا نأمل ألا يروى المؤلف حديثاً عن الإحياء أو غيره — وهو من أجلة المدرسين فى كلية أصول الدين — إلا مع الإشارة إلى درجته على الأقل . ورحم الله الحافظ العراقي فقد كفانا المئونة فى تخريج أحاديث الإحياء كتابُه « المغنى » وقد جمع بينهما الحلبي فى طبعته ؛ ولكن الأستاذ اعتمد على نسخة مجردة . على أن المؤلف نقل تزييف الحفاظ للحديث الصوفى المشهور : « كنت كنزاً مخفيا ... » وأبان اعتراف الصوفية أنفسهم بأنه لم يثبت نقلاً وإن ثبت كشفاً[٢]

وحبذا لو أشار إلى تزييف العراقي للحديث الذى ساقه الغزالى فى الزهد « من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا »[٣] وما أكثر أمثال هذا الحديث فى كتب الغزالى .

(جـ) فى الكتاب أعلام وكلمات غريبة ، كان يحسن أن يضبطها الأستاذ فيكفى القارئ مئونة البحث والتنقير ، ولكن عذره — ويظهر أنه لا بد من الاستدراك دائماً —[٤] أن الكتاب موضوع لطائفة مفروض عليها البحث والتنقيب .

وبعد فما قرأت كتاباً في الأخلاق أو الفلسفة وأحببت أن أعود إليه بشغف وعناية قبل هذا الكتاب . وهذا — فيما أعتقد — أمارة على إخلاص المؤلف وحبه للحق ودءوبه على البحث عنه والوصول إليه ؛ فى أدب جم وخلق كريم ،

طه محمد الساكت

المدرس بمعهد القاهرة

(١) لعل صدر الرسالة ينفسح لعرض هذا السبب فى مقال قريب

(٢) ص ٢٢٧ (٣) فلسفة الأخلاق ص ١٣٥

(٤) الجملة المعترضة مقتبسة من كلام المؤلف ص ١٥٤

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ١٦ — ٩ — ٤٢ فى القضية رقم ١٣١٢ سنة ١٩٤٢ جنح عسكرية ضد نعيمه علي حبشي سن ٥٥ أرملة بتغريمها ٢٠٠ قرش والغلق واللصق والنشر على مصاريفها لامتناعها عن بيع سكر

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)